شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد

الشيخ علي سلطان الجلابنة

الفصل الثالث للعام ١٤٣٧

معهد العلوم الشرعية العالمي
تابع لملتقى طالبات العلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه الكريم وعلى آله وصحبه والتابعين أما بعد؛

لعلنا نكمل إن شاء الله من مكان ما توقفنا، وهو عند الحديث لن نرجع من أول الكتاب حتى نستغل الوقت إن شاء الله.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، ولا سهل لنا إلى ما سهلته لنا إنك أنت الجواد كريم، وبعد؛ يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك. بسم الله الرحمن الرحيم {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}[العصر: ١-٣].

كنا قد توقفنا في المرة الماضية في خلال باب قول الله ﷻ: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ}. وكنا قد توقفنا بالضبط عند حديث عبد الله بن عمرو-رضي الله عنهما-

(المتن)

وصلنا إلى قول المؤلف –عليه رحمة الله-: باب قول الله تعالى:

عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما-، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به». قال النووي: حديث صحيح، رويناه في كتاب "الحجة" بإسناد صحيح.

وقال الشعبي: كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة؛ فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد؛ لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة . وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود؛ لعلمه أنهم يأخذون الرشوة، فاتفقا أن يأتيا كاهنًا في جهينة فيتحاكما إليه، فنزلت: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ} الآية.

وقيل: نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف، ثم ترافعا إلى عمر، فذكر له أحدهما القصة. فقال للذي لم يرض برسول الله صلى الله عليه وسلم: أكذلك؟ قال: نعم، فضربه بالسيف فقتله.

(الشرح)

عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما-، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به». قال النووي: حديث صحيح، رويناه في كتاب "الحجة" بإسناد صحيح.

لكن علماء الجرح والتعديل ومنهم شيخنا الألباني على ضعف إسناد هذا الحديث، وبعضهم مال إلى تصحيحه كالإمام النووي -عليه رحمة الله- لكنه بعيد.

فلا يؤمن أحدكم، أي: لا يحصل له الإيمان الكامل والواجب؛ حتى يكون هواه وميله، حتى أن شيخنا عبد الله السهلي -حفظه الله- كان يقول: الهوى لا يأتي إلا مذمومًا في الكتاب والسنة. فكيف يكون هنا الهوى شيئًا محمودًا، أو كما قال على حسب ما أذكر.

تبعًا لما جئت به، أي: مطابقًا لأفعاله وأقواله، لما جاء به النبي ﷺ وهو الكتاب والسنة. قال: الهوى أكثر ما يُطلق على الضلالة، لا على هوى الإيمان، والآيات في ذلك كثيرة، قال الله ﷻ: {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا}[الفرقان: ٤٣] وغيرها. {أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ}[محمد: ١٤]. فكله على ذم الهوى كما قلت لكم آنفًا.

ثم قال بعد ذلك: وقال الشعبي-رحمه الله-: كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة. الأثر والشعبي ذكر في تفسير هذه الآية وهو من كبار التابعين أنه حصل بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة، المنافقين جمع منافق وهو الإنسان يظهر خلاف ما يبطن، فيظهر الإيمان والإسلام ويبطن الكفر. وهم في الدرك الأسفل من النار.

وهذا الرجل المنافق يعلم أن النبي ﷺ يحكم على حسب ما يسمع من الطرفين، لكن اليهود عُرف عنهم أنهم يأخذون الرشوة، فطلب أن يذهب إلى ذلك الرجل اليهودي، لعلمه أنه على خبر، ولكن يستطيع لماله الذي يدفعه رشوة أن يغطي على ذلك الرجل، فاتفقا —سبحان الله– الحديث.

وقيل: نزلت في رجلين اختصما وللشيخ —رحمه الله– ذكر هذه القصة بصيغة التمريض، قال: وقيل. لكن ذُكر في تيسير العزيز الحميد أنها رُويت من طرق متعددة، وأنها مشهورة متداولة بين السلف والخلف تداولًا يغني عن الإسناد. ولها طرق كثيرة، وبعض أهل العلم قالوا: لا يضرهم ضعفها.

الآن هذه الآية نزلت في رجلين اختصما فقالا نترافع أو يتحاكما إلى النبي ﷺ، وقال آخر: إلى كعب بن الأشرف، وكعب هذا من علماء اليهود، ومن رؤسائهم، والرجلين الذي يظهر أنهما من أحدهم من اليهود أو من المنافقين والآخر من اليهود.

وهذه القصة والتي قبلها تدل على من لم يرض الحكم لله ﷻ أو بحكم رسوله ﷺ كافر، والكافر يجب قتله لهذا ماذا صنع عمر بن الخطاب ﷺ؟ أقول: لأجل هذا السبب قتله عمر.

لكن لو سألك سائل، وقال لكم: كيف يقتله عمر ﷺ؟ والأمر إلى الإيمان وهو النبي ﷺ، أُجيب أن الظاهر أن عمر ﷺ لم يملك نفسه لقوة غيرته على الدين، فقتله. لماذا؟ لأنه عرف أن هذا ردة عن الإسلام. وأن النبي ﷺ قال في أحاديث: «من بدل دينه فاقتلوه». وقيل: غير هذا الجواب.

(المتن)

قال بعدها: باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات

وقول الله تعالى: {وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ} [١] الآية.

وفي صحيح البخاري قال علي ﷺ: "حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟ ".

وروى عبد الرزاق الصنعاني عن معمر -بن راشد والله تعالى أعلم -عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس: أنه رأى رجلًا انتفض . لما سمع حديثًا عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصفات، استنكاراً لذلك . فقال: "ما فرق هؤلاء؟ يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه". انتهى.

ولما سمعت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر: (الرحمن) أنكروا ذلك. فأنزل الله فيهم: {وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ}.

(الشرح)

هذا الباب أخواتي، ترجم له إمام هذه الدعوة، بقوله: "باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات" فكلامه هنا عن جحود شيئًا من أسماء الله ﷻ وصفاته ﷻ، ويلحق هذا الإنسان الذي يجحد شيئًا من أسماء الله وصفاته من الذنب وبين —رحمه الله– أن جحود شيئًا من الأسماء والصفات هو منافٍ لأصل التوحيد.

وهذا الشيء الذي هو جحود شيئًا من الأسماء والصفات -لا بأس أعانكم الله، اطلبوا منها الدعاء لنا إذا كانت صائمة– أن يوفقنا الله ﷻ للعلم النافع والعمل الصالح.

أقول هذا الشيء الذي هو جحود الشيء من الأسماء والصفات، هو من خصال الكفار والمشركين، ولهذا الباب صلة وطيدة بكتاب التوحيد من جهتين: الجهة الأولى: أن من براهين توحيد العبادة توحيد الأسماء والصفات.

الجهة الثانية: أن جحود شيئًا من الأسماء والصفات شركٌ وكفرٌ مخرجٌ من الملة، وأن من ثبت عنده الاسم أو ثبتت عنده الصفة وعلم أن الله ﷻ أثبتها لنفسه، وأثبتها له

---

[١] الرعد : ٣٠ .

رسوله ﷺ، ثم بعد ذلك جحدها ونفاها أصلًا فإنها هذا كفرًا؛ لأنه تكليفًا بالكتاب والسنة.

والجحود هو الإنكار، الإنكار على نوعين: -لابد أن ننتبه- النوع الأول: إنكار تكذيبه، وهذا كفر بلا شك، والنوع الثاني: إنكار التأويل، وهو أن لا ينكرها من أصلها طبعًا، هو يثبتها. ولكن يتأولها إلى معنى يخالف ظاهرها. وهذا القسم الذي حصلت فيها الإشكالية بين بعض فرق المسلمين بين أهل السنة وغيرهم.

وهذا نوعان: أن يكون للتأويل مصوغ في اللغة العربية، يعني: يكون مستصاغ، هذا يوجب الكفر. أو أن لا يكون له مصوغ في اللغة العربية أبدًا، فهذا حكمه الكفر. لأنه إذا لم يكن له مصوغ في اللغة العربية؛ فصار في الحقيقة تكذيبًا وإنكارًا لأصل هذا الشيء.

ومن باب الفائدة أقول: أن صفات الله ﷻ تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: صفات ذاتية. أو يُقال لها: صفات معنوية.

والقسم الثاني: صفات فعلية.

والقسم الثالث: صفات خبرية. وهذا الذي عليه أهل السنة والجماعة. الآن لابد لنا أن نفهم هذه الثلاث.

أما الصفات الذاتية؛ فهي الملازمة لصفات الله ﷻ، والتي لم يزل أو لا يزال متصفًا بها قديمًا وحديثًا ومستقبلًا. مثل السمع والبصر وهذه الصفات تُسمى صفات ذاتية. وبعضهم يقول عنها: صفات معنوية؛ لأن هذه الصفات عبارة عن معاني، السمع والبصر والعلم وما شابه ذلك.

النوع الثاني: صفات فعلية، وهي التي تتعلق بمشيئة الله ﷻ يعني: إن شاء فعلها وإن لم يشأ لم يفعلها. مثل ماذا؟ مثل النزول إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل. كما صح عن النبي ﷺ. صح عنه أنه قال: «أنه ينزل ربنا في الثلث الأخير من الليل، فيقول:

هل من داعٍ فاستجيب له؟ » نسأل الله ﷻ أن يستجيب لنا وأن يغفر لنا وأن يوفقنا ويهدينا في الدنيا والآخرة.

أيضًا صفة الاستواء، {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}[طه: ٥] هي صفة فعلية، تتعلق بمشيئة الله؛ فمتى ما شاء نزل إلى السماء الدنيا؟ ومتى ما شاء استوى على العرش، والكلام كلام الله ﷻ من حيث آحاده هي صفات فعلية، لكن من حيث كله صفات ذاتية أو معنوية.

هو متكلم من القدم، لكن قد أحيانًا تجدد هذه الصفة، {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا}[المجادلة: ١]. وما شابه ذلك من الأفعال أو من الصفات.

الموضع الثالث من صفات الله ﷻ: صفات خبرية، وهي نفس هذه الصفات وضابطها هي ما كان أبعاضًا وأجزاءً لنا نحن المخلوقين، أما بالنسبة لله ﷻ فلا يُقال هذا، بل يُقال هي صفات خبرية، يعني: ثبت بها الخبر من الكتاب والسنة، وهي ليست معنى ولا فعلًا. مثل ماذا؟ مثل الوجه، والعين والساق واليد وما شابه ذلك. فهذه عندنا نحن البشر أو نحن المخلوقات تُسمى أبعاض أجزاء من جسم الإنسان، لكنها في حق الله ﷻ تُسمى صفات خبرية. هل وضحت هذه الفائدة بارك الله فيكم؟

قال في الآية الأولى: {كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ}[الرعد: ٣٠]. هذه الآية عظيمة في سورة الرعد. وهم يكفرون بالرحمن، أرسل الله ﷻ في كل أمة وفي كل قرن وفي كل جماعة وأرسل فيهم نبي، {كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ} قد خلا من قبلها قرون، وأرسلنا إليهم رسلًا، وبعثنا إليه أنبياء.

قال: قد خلت. يعني: نفت ومضت، وقرون وجماعات للناس، لماذا؟ لتتلو عليه يا محمد القرآن، {لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ} وهم يكفرون ويجحدون بالرحمن، وهو اسم من أسماء الله

ﷻ الخاصة به. ومعناه أن ذكر أهل العلم في معناه أشياء؛ لكن من الجميل هو كثير الرحمة لعبادة، على وزن فعلان.

ومن رحمته ﷻ أنه أرسل الرسل وأنزل الكتب، وأرسل الرسول ﷺ وأنزل إليه الكتاب، وقال في نهاية الآية { قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ}. أصلها وإليه متابي لكن الياء للتخفيف. والمتاب يعني: الرجوع والأوبة. والتوبة فهو مصدر ميمي أو وإليه توبتي.

والتوبة معروفة هي الرجوع من المعصية إلى الطاعة، وإليه توبتي والتوبة معروفة هي الرجوع من الله تعالى من المعصية ولها شروط، وبعضها قال: ثلاثة وزاد شيخنا العثيمين – رحمه الله– وغيره طبعًا بأن جعلوها خمسة.

والأول: الإخلاص لله ﷻ. والثاني: أن تكون في وقت قبول التوبة. والثالث: الندم. والرابع: الإقلاع. الخامس: العزم على عدم العودة. وهذه شروط التوبة.

قال: وفي صحيح البخاري قال علي ﷺ: "حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يُكذب الله ورسوله؟ ".

قوله: بما يعرفون، يعني: لما تتكلموا مع الناس، عن صفات الله ﷻ عن حياة الآخرة والجنة، حاولوا أن تتكلموا معهم بما يعرفوه، وتبلغوه عقولهم، لماذا؟ حتى لا يفتتنوا.

ولهذا أيضًا جاء عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: "إنك لن تحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة". ولهذا من الحكمة في الدعوة إلى الله ﷻ ألا تأتي الناس بما لا يمكنهم إدراكه؛ بل ادعوهم رويدًا رويدًا، شيئًا يسيرًا على عقولهم؛ حتى يستقر في تلك العقول. وليس بما يعرفون مما يعرفونه من قبل، لأن الذي يعرفونه من قبل، يكون التحديث به من باب تحصيل الشيء الحاصل.

سبب هذا القول –والله تعالى أعلم– أنه ما وقع في خلافته ﷺ في زمن الخليفة علي ﷺ حصل أشياء، والذي يظهر أنه من الأشياء التي حصلت في عصره ﷺ أن الناس

أقبلوا على الحديث. وأصبحوا هناك القصاص والوعاظ وكثروا، فصار بعضه يأتي إلى الناس بقصص وأحاديث لا تُعرف هي من هذا القبيل.

فربما استنكرها بعض الناس، وربما ردها البعض الآخر، وقد يكون لبعضها أصل، أو معنى صحيحًا، فيقع ذلك في الذي يرد هذا الشيء في بعض المفاسد التي نهى النبي ﷺ ونهى عنها الصحابة كما ذكرنا. ماذا قال ابن مسعود؟ كان لبعضهم فتنة. وماذا قال علي؟ قال: أتريدون أن يُكذب الله ورسوله.

فالقضية خطيرة قد يرد الإنسان الحديث إذا شعر أن فيه ما فيه، ويظن له أصل، فيدخل في النهي، فأرشد أمير المؤمنين علي ﷺ إلى أن الناس أو طلبة العلم لا يحدثوا عامة الناس إلا بما هو معروف ينفع الناس في أصل دينهم وأحكامه وبيان الحلال والحرام، وهذه الأشياء التي إذا كُلم الناس بها فهموها وعملوا بها.

لا يُكلموا بأشياء قد يردوها العوام، ولا يقبلوها فيفضي بهم إلى التكذيب، والذي يكذب ويجحد شيئًا يقع في ما ذكرناه والله تعالى أعلم.

قال: وروى عبد الرزاق الصنعاني عن معمر -بن راشد والله تعالى أعلم -عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس: أنه رأى رجلًا انتفض. لماذا؟ سبب هذه الانتفاضة، سببها استنكار هذه الصفات أو استنكار حديث الصفات، لماذا استنكر ذلك؟ أما لأن عقله لا يحتملها، أو لكونه اعتقد عدم صحته فأنكره والله تعالى أعلم.

فماذا قال؟ قال: "ما فرق هؤلاء؟ يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه". فرق بتخفيف الراء، قد يُقال بالتشديد، ما فرّق هؤلاء؟ بين الحق والباطل. ثم قال: يجدون رقة عند محكمه، يعني: يجدون ميلًا وقبولًا للحكم، عند الآيات المحكمة أو الصفات المحكمة. والمحكم يعني: الواضح.

قال: ويهلكون عند متشابهه. أو يُهلكون عند متشابهه، يعني: ينكرون ما تشابه عليه معناه. ولذلك قد يقع في ماذا؟ في ما ذكرنا في بداية الباب، وهو الجحود ببعض أسماء الله أو صفاته.

فالمحكم هو الذي اتضح معناه، وبينه والمتشابه هو الذي يخفى معناه، ولا يعلمه الناس. وهذا إذا جمع بين المحكم والمتشابه في إعطائه للناس، إذا ذكروا محكمًا ومتشابه فإنه قد يخفى على الناس، ويظهر لهم المتشابه ولذلك لابد له من أن يكلمهم بما يفهمون.

طبعًا هناك معاني أخرى للمحكم والمتشابه. تقول الأخت: أين الله؟ تقول: أنه في قيمة النعم. نسأل الله العافية، لكنه ﷻ في السماء مستو على العرش، ونقول: أن علمه في كل مكان. فهو العليم بذاته ﷻ جل ثناؤه تعالى شانه.

قال: ولما سمعت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر: (الرحمن) أنكروا ذلك. فأنزل الله فيهم: {وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ}. أنهم يكفرون بهذا الاسم، لا بالمسمى، فهم يقرون بأن الله تعالى موجود، {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} [العنكبوت: ٦١].

وفي حديث سهل بن عمر الذي في الحديبية، قال: ثم أراد النبي ﷺ أن يكتب الصلح، وقال للكاتب: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم». فماذا قالت قريش؟ قال: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هي؟ ولكن أكتب باسمك اللهم، وهذا من الأمثلة التي يُراد بها الاسم دون المسمى.

وقوله: لما سمعت قريش، الظاهر والله أعلم أنه من باب العام الذي أُريد به الخصوص، بل طائفة منهم، ولكن إذا أقرت الأمة الطائفة على ذلك، ولا تنكر عليها صح أن يُنسب لهم جميعًا. والله تعالى أعلم.

(المتن)

باب قول الله تعالى: {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ} [1].

قال مجاهد ما معناه: هو قول الرجل: هذا مالي، ورثته عن آبائي.

وقال عون بن عبد الله: يقولون: لولا فلان لم يكن كذا.

---

[1] النحل : ٨٣ .

وقال ابن قتيبة: يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا.

وقال أبو العباس – بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه: (إن الله تعالى قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر. .) الحديث. وقد تقدم –وهذا كلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب وقد تقدم، وهو قليل كلامه– أكثر هذا الكتاب أما قلا الله أو قال بينه ﷺ أو قال أهل العم، نادرًا ما يتكلم ومن هذا النادر كلامه في هذا الموضوع.

قال: وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره، ويشرك به.

قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقاً، ونحو ذلك مما هو جارٍ على ألسنة كثير.

(الشرح)

انتهى كلامه في هذا الباب، لماذا؟ هذا الباب من الأبواب العظيمة في هذا الكتاب، لماذا؟ لأننا في هذا الزمن نحتاجه بل نحن في أمس الحاجة إليه، معرفة نعم الله ﷻ ثم إنكار هذه النعمة. فوصف الله ﷻ الكفار. في هذه السورة سورة النحل، وهي تُسمى بسورة النعم، وصفهم بأنهم يعرفون نعمة الله ﷻ ثم ينكرونها. وإنكار النعمة أن تُنسب إلى غير الله ﷻ. نسأل الله السلامة.

إنكار النعمة أن تُنسب إلى غير الله ﷻ، وأن تُجعل المتفضل بالنعمة غير الذي أسداها إليك. وعلى العبد أن يعلم أن كل النعم من الله ﷻ. والواجب عليه أيضًا أن يعلم أنك كمال التوحيد لا يكون إلا بإضافة كل نعمة إلى الله ﷻ. وإن إضافة النعم إلى غير الله ﷻ هو نقص في توحيد ذلك العبد؛ بل هو نوع شرك والعياذ بالله.

لهذا تتبين لنا مناسبة هذا الباب في كتاب التوحيد، وذلك أن ثمة أمصارًا يستعملها كثير من الناس ذكر الشيخ بعضها، كما قرأناه قبل قليل. يستعملها كثير من الناس، في مقابلة النعم. أو في مقابلة اندفاع النقم. وتكون تلك الألفاظ فيها نوع شرك من الله ﷻ بل هي شرك أصغر بالله ﷻ.

لذلك نبه الشيخ –رحمه الله– بهذا الباب على ما ينافي كمال التوحيد، بماذا؟ من الألفاظ وأن نسبة النعم إلى اللهﷻ هي من الأشياء الواجبة على الناس.

قال الشيخ –رحمه الله–: قول الله تعالى: {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ}. يعرفون يعني: يعترفون بماذا؟ هل يعترفون بأن النعم كلها من عند اللهﷻ. والنعم يعرفون نعمت هي مفرد نعم، والمراد هنا ليس النعمة الواحدة، بل المراد بها الجمع. فهي ليست واحدة. بل هي نعم الله ﷻ لا تُعد ولا تُحصى. والدليل قوله تبارك وتعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[النحل: ١٨].

هذا لا بأس الأصل أن تنسبها لله ﷻ ثم أن تقولي: أن الله ﷻ يسرها على يد فلان. وهذه هي الأسباب الدنيوية. واضح أختنا بارك الله فيكم.

قال: { ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ}، ثم ينكرون النعم، لماذا وكيف؟ ينكرونها بأفعالهم القبيحة من عبادة غير الله ﷻ أو بأقوالهم حيث قالوا: حصلت لنا هذه النعمة؛ بسبب الصنم أو النجم أو قالوا: أخذناها عن آبائنا الأولين أو أجدادنا، وهكذا وليس المعنى أو متى يجمع بين الأفعال والأقوال؟ وليس المعنى أن ينكرون هذه النعم، مثل أن يقولون: ما جاءنا من صحة أو من ولد. دائمًا نحن بدون مطر ولا أولاد. ليس هكذا.

ولكنهم ينكرونها بإضافتها إلى غير الله ﷻ متناسين في ذلك الله ﷻ رب الأرض والسموات. فهو ﷻ هو الرب الحقيقي. والمسبب الحقيقي. وأكثرهم الكافرون، يكفرون ويجحدون نعم الله ﷻ بها عليهم.

قال مجاهد ما معناه ليس حرفيًا بل بالمعنى: هو قول الرجل: هذا مالي، ورثته عن آبائي. يعني من باب التغليب أفضل، وإلا هذا الكلام قد تقوله المرأة أيضًا، لكن يُقال دائمًا أو يُطلق الرجل ويُراد به الرجل والمرأة، لكن يُطلق عليه من باب التغليب؛ وإلا فالحكم واحد.

لما قال: هذا مالي. ظاهر هذه الكلمة أنه ليس فيه شيء، وتسأله يقول: هذا مالي ورثته عن آبائي وعن أجدادي. يعني: لو إنسان ما سألك من أين لك هذا الطوق، أو هذا الجوال؟ تقول: أعطاني إياه أبي، أو رثت الطوق عن آبائي. وهو الأصل أنه ليس فيه شيء؛ لأنه خبر محض، ليس فيه شيء؛ لأنك مجرد إخبار أن تخبريه. وهذا الأصل.

قال: وقال عون بن عبد الله: يقولون: لولا فلان لم يكن كذا. فإذا ما أخبرت أنتي بمجرد إخبار، فهذا لا شيء فيه. لكن الذي يقولها معتقدًا بأنها هي هكذا، ليست من عند الله ﷻ، فهذا الذي يدخل في النهي الوارد عن الباب.

هذا القول الذي يقولون فيه: لولا فلان لم يكن كذا وكذا. فيه تفصيل كيف ذلك؟ إن أراد به الخبر، كما قلنا قبل قليل، وكان الخبر صدقًا صادقًا مطابقًا للواقع؛ فهذا لا بأس به.

وإذا أراد بها السبب؛ فلذلك ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون السبب خفيًا. لا تأثير له إطلاقًا كأن يقول: لولا الولي الفلاني مثلًا ما حصل كذا وكذا. هذا شرك أكبر؛ لأنه يعتقد بهذا القول أن هذا هو الذي تصرف في هذا الكون، أو له تصرف في الكون؛ مع أنه ميت.

الثانية: أن يضيفه إلى سبب صحيح. سبب ثابت أو حسًا؛ فهذا جائز؛ بشرط أن يعتقد هذا السبب هو المؤثر بنفسه؛ بل يعتقد أنه مجرد أن هذا السبب مجرد سبب. وألا يتناسى المنعم لذلك وهو الله.

الثالث: أن يضيفه إلى سبب ظاهر، لكن يثبت كونه سببًا، لا شرعًا ولا حسًا. يعني: هذا الرجل يضيف شيء معينًا إلى سبب واحد، والقلائد التي تُعلق في أعناق الأطفال، هذا يُثبت لها ويقولون: أنها تدفع الشر، أن ترد العين وما شابه ذلك. فهذا نوع من الشرك الأصغر. لماذا؟ لأن الناس أثبتوا سببًا لم يجعله الله ﷻ سببًا. فكان مشاركًا لله ﷻ في إثبات الأسباب.

قال: وقال ابن قتيبة: يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا. هؤلاء القوم أخبث من الذين قبلهم؛ لماذا؟ لأنهم أشركوا بالله ﷻ ويعبدوا غير الله ﷻ، ثم يقولون: إن هذه النعم، حصلت بشفاعة آلهتنا. فالعزى مثلًا يقولون: شفعت عند الله أن ينزل المطر.

وهؤلاء أثبتوا سببًا من أقوى الأسباب، لأن الله ﷻ لا يقبل شفاعة هذه الإلهة في الدنيا ولا في الآخرة. فالشفاعة لا تنفع إلا من أذن له الله ﷻ ورضي له قولًا. والله ﷻ لا يعبث للأصنام حاشا وكلا بالشفاعة. وهذا القول أبطل من الذي قبله، وفيه محذورين، و المحذور الأول: الشرك بهذه الأصنام. والنوع الثاني: إثبات سبب غير صحيح. هكذا يقولون، نسأل الله السلامة.

كلام شيخ الإسلام يدل على أن حكم هذه الآية عام، فيما نسب النعم إلى غير الله ﷻ، وهو سبحانه الذي أنعم بها. كما هو مذكور طبعًا في كتب التفسير.

وقال أبو العباس – بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه: (إن الله تعالى قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر. .) الحديث.

قال بعد ذلك قول الشيخ –رحمه الله–: وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره، يعني: مثلًا مثل الاستسقاء بالأنوار، كان مذمومًا، لماذا؟ لأنه لو أتى إليك عبدًا وهو ليس لك، والعبد فلان مثلًا وهذه هدية من سيدي، فأنت شكرت العبد وقبلت رأسه، وفرحت له دون أن تشكر السيد.

ما هو موقفك أما سيد هذا العبد؟ هذا الفعل مذموم، أليس كذلك؟ بل هي سواء أدب مع السيد، وهذا كفران لنعمة السيد، فكيف لو أضفتي النعمة إلى السبب، هذا أقبح من ذلك.

ثم قال بعد ذلك: قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقًا، ونحو ذلك مما هو جارٍ على ألسنة كثير. {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ

مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ}[يونس: ٢٢]

فكانوا الذين يسمون رب السفينة وكذا القبطان، إذا قام سير السفينة، قالوا: كانت الريح طيبة. وكان الملاح وقائد السفينة حاذقًا، يعني: مجيدًا للقيادة، فيضيفون الشيء إلى سببه، وينسون الخالق ﷻ. والكلام على هذه مثل الكلام على سابقتها.

والأصل أن يضيفونه إلى الله ﷻ وقد يكون هذا الشيء مجرد سببٍ الله ﷻ جعله يخدم هذه القضية، وهي مثلًا جر السفينة إلى منطقة معينة.

نكمل غدًا إن شاء الله، هذا والله ﷻ أعلى وأعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد ﷺ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تم هذا الدرس يوم الإثنين بتاريخ ١٨ \صفر\ ١٤٣٧ هـ الموافق30\11\2015 م

معهد العلوم الشرعية